فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

قال ابن إسحاق: فذُكر لي أن أم جميل ـ حمّالة الحطب ـ حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصّديق، وفي يدها فهرٌ ـ الحَجَر ملء الكف ـ من حجارة، فلما وقفتْ عليهم، أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلاّ أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدتُهُ لضربتُ بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مـــذمّمـــاً عَصَينـــا وأمـــرَهُ أبَيْنـــا
ودينَه قلَيْنا

ثم انصرفَت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: «ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عنّي».

قال ابن إسحاق: وكانت قريش إنما تُسمّي رسول الله ﷺ مذمّماً، ثم يسبّونه، فكان رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون لما صَرَف الله عنّي من أذىٰ قريش، يسُبُّون ويهجون مذمّماً وأنا محمد»[1].

سلام الله عليك يا رسول الله:

فلولا أنك روح الوجود، لفعلت كما فعل كثيرٌ من الأنبياء السابقين، مثال ذلك شيخ الأنبياء نوح عليه السلام، فبعد أن دعا قومه قرابة ألف عام، وبعد أن استخدم معهم عدداً كبيراً من أساليب الدعوة إلىٰ الله، حيث دعاهم سرّاً وعلانية، ورغّبهم ورهّبهم، وقدّم لهم الحجج والبراهين، ومع ذلك ما آمن معه إلا نَفَرٌ قليلٌ لا يتجاوزون الثمانين!!.

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٧٨.

عندئذٍ توجّه نوح عليه السلام إلىٰ رافع السماء بلا عمد وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

والفرق هنا: أن نوحاً وأمثاله من الأنبياء جاؤوا ضمن مساحاتٍ معينة للدعوة، فكل نبيّ جاء إلىٰ قومه خاصة، بينما المصطفىٰ ﷺ جاء للناس قاطبةً، فهو روح الوجود كله، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

مثل آخر: نبي الله موسىٰ عليه السلام، بعد أن دعا الطاغية فرعون ومن معه، وما كان منهم إلاّ التكذيب والاستهزاء، ثم حشدوا الحشود لقتال كليم الله موسىٰ ـ عليه السلام ـ ومن معه، عندئذٍ دعا الله قائلاً: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

أما روح الوجود محمد ﷺ، فكان الخطاب المكرر إليه: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥].

لما أراد الله جلّ جلاله ... أن ينقذ الدنيا من العثراتِ
أهداكَ ربك للورىٰ يا سيّدي ... فيضاً من الأنوار والرحماتِ
يا صاحب الخلق الكبير عرفته ... وبسطته في حكمةٍ وأناةِ
وطلعتَ في الليل البهيم مؤذّناً ... بالحق والأنوار والصلواتِ
ودعوت للخيرات قوماً ضللوا ... ما كان أبعدهم عن الخيراتِ
ودعوت حتىٰ كنتَ أصبر من دعا ... وأقمتَ بين إساءة وأذاةِ
فصبرتَ ثم رحلتَ ثم ضربتَ في ... أعناقهم في عزّةٍ وثباتِ
فحظيت بالنصر المبين مؤزّراً ... وأقمتَ حقك خافق الراياتِ
وضربته مثلاً لكل مكابر ... لا يستوي حقٌّ بغير حماةِ

* * *